أبو عبيدة

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شيخ الأدب فى مدينة البصرة ، منذ قضى شيخه أبو عمرو بن العلاء ، وخلا مكانه فى المسجد الجامع ، فى منتصف القرن الثانى ، وقد ظل يملأ ذلك المكان أكثر من نصف قرن ، وظلت شخصيته القوية وصيته البعيد يجتذبان إلى مجلسه طلاب الأدب والمتأدبين فى البصرة وما وراءها . وقد تخرج عليه معظم الذين كانوا يمثّلون الادب ويوجهون الحياة الأدبية فى ذلك العصر ، كالجاحظ والمازنى وعمر بن شبة وأبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وأبى نواس وأهل طبقته من الشعراء كأبى العيناء والحسين الضحاك .

وإلى جانب هذه الأستاذية القوية لذلك الجيل ، كان أصلا من الأصول الكبيرة التي قام عليها الكتاب العربى ، واستمد منها النثر الفنى . ولقد بلغت الكتب المسندة إليه نحو المائتين فى الموضوعات المختلفة . وقد بقيت لنا منها بقايا نستطيع أن نضعه بها فى موضعه الحقيقى من تاريخنا الأدبى .

وكان — فيما يبدو — من أنشط الناس فى الدرس ، وأكثرهم تمثلا للاتجاهات المختلفة فى عصره ، حتى جاز لأبى عثمان الجاحظ أن يصفه بهذه العبارة : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة » . وهذه العبارة وحدها تدلنا على مكان أبى عبيدة من الحياة الأدبية والعقلية لذلك العهد ، وعلى المنزلة التى كان يتمتع بها بين تلاميذه وأهل عصره .

ومع ذلك كله لم يكد الرجل يظفر من البحث الأدبى الحديث بأكثر من تلك الإلمامات البسيطة التى لا تكاد تغنى عن العلم شيئاً . وقد كتب الأستاذ أحمد أمين شيئا عنه فى كتابه « ضحى الاسلام » فى الفصل الذى عقده عن « اللغة والنحو والأدب » ، ولكنه جزء من فصل من باب من كتاب ، فلم تكن « هندسة الكتاب » تأذن بأكثر مما كتب فيه عنه .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نتبين أبا عبيدة متصلا بعصره، وبالتيارات الغالبة عليه، وأن نتمثله تمثلا مستمدًّا من آثاره. ومهما تكن الاقدار قد أصابت هذه الآثار فبددتها وأضاعت معظمها، فلا محيص للباحث الذى يتلمس مظاهر الحياة الأدبيــة فى القرن الثانى، ويتتبع تاريخ النثر العربى فى ملابساته المختلفة، ويقتفى الأطوار التى مر بها الـكتاب العربى، من محاولة التعرف إليه واستبطان حقائقه، بتقصى أخبـاره ونثار آثاره فى المصادر المباشرة وغـير المباشرة. وقد بقى لنا من آثاره قطعة من كتاب «مجاز القرآن» محفوظة فى مكتبة الجامعة المصرية، إلى جانب قطعة أخرى فى دار الـكتب المصرية، ثم كتاب النقائض، على نظر فى ذلك نرجو أن نعرض له بعد. وفوق هذا لا يكاد كتاب من كتب الأدب العربى العامة يخلو من الرواية عنه، والنقل لبعض آثاره فى المواضع المختلفة، وإن كان أكثر هذا النقل لا يسند إلى كتاب بعينه.

١

لا نكاد نعرف شيئاً عن أصل أبى عبيدة وأوليته — كما هو الشأن فى أكثر أهل هذه الفترة المضطربة — إلا ما نتحسسه تحسساً فى بعض النصوص التى تروى عنه. ولدينا فى ذلك نصان ذكرهما ابن النديم، أحدهما عن علان (أو غيلان) الشعوبى، يقول إنه من أهل فارس، أعجمى الأصل. والآخر ينسب إلى أبى عبيدة نفسه إذ يقول: «حدثنى أبى أن أباه كان يهوديًّا بباجروان» فأما فارس فهى ذلك الإقليم الذى يقع على بحر الهند أو الخليج الفارسى بين إقليم البصرة والأهواز وكرمان، وهى إقليم إيرانى عريق لعله من أول الأقاليم التى صدرت عنها النزعة الشعوبية واتخذت فيها منهجاً منظما. وأما باجروان فهى مدينة قصية على التخوم الايرانية التركية، والأمر فيها مختلف بين الجنس الايرانى والجنس الطورانى. ويقول عنها ياقوت: إنها « مدينة من نواحى باب الأبواب، قرب شروان، عندها عين الحياة التى وجـدها الخضر عليه السلام، وقيل هى القرية التى استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها» . وباب الأبواب (دربند) التى تقع باجروان فى نواحيها واقعة — كما يقول ياقوت عن الإصطخرى — على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر أو بحر قزوين؛ فباجروان إذن واقعة فى تلك

الأقاليم الجبلية التى تشرف على ذلك البحر . وحديث المستوفى عنها يجعلنا نتمثل موقعها تمثلا أدنى إلى الدقة من هذا ؛ إذ يقول : إنها القصبة القديمة لإقليم موقان ، على أربعة فراسخ شمال برزند ، وموقان هى إحدى ولايات أذربيجان ، وإذن فهى إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين . ويقول ياقوت فى وصفها : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، يحتلها التركماز للرعى ، فأكثر أهلها منهم » . وهكذا تنتهى بنا هذه النصوص إلى تصور المفارقات الكثيرة التى تفرق بين « فارس » التى يذكرها نص علان الشعوبى ، « وباچروان » التى يذكرها نص أبى عبيدة نفسه. على أنه لا تعارض عندنا بين النصين ؛ فنص أبى عبيدة يتعلق بأصله الأول ومقام أجداده ، والنص الثانى يتعلق بمنشئه ، حيث ولد ونشأ نشأته الأولى ؛ فالجهة منفكة كما يقول المناطقة ، إذ كان كل من النصين يعنى شيئاً لا يعنيه النص الآخر .

ومما يقوى لدينا نص أبى عبيدة : أن جده كان يهوديًّا من يهود باچروان ما يبدو من أن ذلك الإقليم كان من الأقاليم التى اتخذت الديانة اليهودية فيها مكاناً ظاهراً ، بدليل هذه الذكريات اليهودية التى تتصل به وتحوم حوله ، كما رأينا فى النص الذى أوردناه عن باچروان ، ومثل هذا نجده فى الكلام عن شروان ، إذ يقول ياقوت : « ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التى نسى عندها الحوت فى قوله تعالى : (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت) . قالوا : فالصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية باچروان » ويصرح البشارى فى كلامه عن بعض المدن هنالك بما يدل على أن اليهودية كانت ظاهرة فى ذلك الإقليم ، كما فى كلامه عن « إتل » و « خزر » فى سياق الحديث عن « إقليم الديلم » .

وإذن فأبو عبيدة من أسرة يهودية خزرية الأصل ، حتى إذا كانت إحدى تلك الغزوات التى جعل المسمون يشنونها على تلك الجهات وقع جده فى الاسر ، ثم صار إلى فارس فى ولاء أحد التيميين . وهنالك نشأت هذه الأسرة الصغيرة إلى جانب مواليها : بنى عبيد الله بن معمر التيمى ، حتى خرج منها معمر بن المثنى . وقد ولد فى أوائل القرن الثانى ، على اختلاف كبير فى سنة مولده بين سنة ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ . ثم يعترض هذه الأقوال كلها فى سنة مولده نص يذكره ياقوت فى ترجمة قتادة بن دعامة السدوسى ، يرويه التوزى عن أبى عبيدة إذ يقول : « ما كنا نفقد فى كل أيام السنة راكباً من ناحية بنى أمية ، ينيخ على

باب قتادة ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر » . وقتادة هذا مات — كما يقول الأصمعى فى حكاية ياقوت عنه — « بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة ، فى أيام هشام بن عبد الملك » . فإذا صح هذا الخبر ولم يكن محرفاً كان علينا أن نجعل مولد أبى عبيدة قبل سنة ١١٠ بسنوات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نشأ معمر بن المثنى فى البصرة — ولا ندرى متى كان انتقاله إليها من فارس — وقد صادفت نشأته هذه اليقظة القوية التى هزت العقل الإسلامى هزة عنيفة منذ ذلك الوقت ، حين جعل الموالى يحسون بشخصيتهم ، ويتوثبون ليظفروا لأنفسهم فى ذلك المجتمع بالمكانة اللائقة بهم ، والجديرة بتاريخهم وبالدور الذى قاموا به فى التمهيد لهذه الدولة الجديدة . وكذلك أخذت تحفزهم هـذه الحوافز القوية العميقة وما جعل يلابسها من ملابسات مختلفة إلى مجاراة هؤلاء العرب فى ثقافتهم ، ليكونوا نظراءهم ، إلى جانب استحيائهم ثقافاتهم القديمة ، ثم ما يستتبعه الاستطراد فى هذه السبل من محاولة الغض من العرب ، ثم ما يترتب على ذلك من شعور العرب بهذه المنافسة والمغالبة ، وما يوقظه ذلك فى نفوسهم من الحرص ، وما يدفعهم إليه من التحفز والتسلح بشتى الأسلحة ؛ وبذلك امتلأ الجو نشاطاً وحيوية ، وأخذت الحياة الأدبية والعلمية تتخذ فى مدينة البصرة ، منذ أول القرن الثانى ، مظهراً رائعاً ، لا فى استحيـاء الآثار الأجنبية القديمة فحسب ، بل فى درس الأدب العربى ومظـاهر الحياة العربية درساً دائباً منظماً كذلك ، بتأثير تلك الحالة التى ذكرناها .

فى مثل هذه الفترات المضطربة التى تختلف فيها العناصر ، ويشتد التنافس ، وتعظم الحيوية ، يوجد نوع من الطموح الأدبى يغمر النفوس ويضع أمامها صوراً من المجد الأدبى متألقة فاتنة . وكذلك أقبل صاحبنا معمر بن المثنى على الدرس واتخذ سبيله إلى العربية . وسنفسر هذا الاتجاه فيما بعد من بعض وجوهه . على أنا نستطيع أن نقول منذ الآن : إن لمكانة أبى عمرو بن العلاء فى البصرة ولشخصيته القوية أثراً غير قليل فى هذا التوجيه ، فاتخذه معمر شيخاً له ، وأخذ مكانه فى حلقته ، وكانت من أكثر حلقات المسجد توفراً وأحفلها بالطلاب. وقد ظل أثر أبى عمرو فيه أبقى الآثار وأكثرها غلبة عليه .

وقد كان أبو عمرو رجلا واسع المعرفة إلى حد بعيد ، حتى ليذهب الجاحظ

فى صفته إلى القول بأنه « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان » . ويصفه أبو عبيدة نفسه — كما يروى الجاحظ عنه — بقوله : « كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس ... وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » . وهذا الوصف الذى يصف به أبو عبيدة شيخه الأول وأستاذه الأكبر هو طابع علمه هو الذى ظل مخلصاً له ؛ فقد كان أكثر اتجاهه إلى علوم العرب والعربية والشعر وأيام الناس ، وكان مكبراً لهذه الناحية وفيًّا لها ، ملتمساً الأسباب المختلفة لتحقيقها ، فلم يكتف بالأخذ عن أبى عمرو ، بل ذهب يتتلمذ على أحد تلاميذه المطبوعين بطابعه ، وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . وهو وإن كان يختلف عن أستاذه أبى عمرو بأنه كان من هؤلاء الموالى الذين اتجهوا إلى درس العربية ، قد كان أعرابى الطابع ، و « كانت حلقته مجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب » كما يقول ياقوت . ويذكر أبو عبيدة أخذه عنه بقوله : « اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه »

ثم لم يكف هذا أبا عبيدة فى إرضاء تلك النزعة ، فاتجه إلى الأعراب أنفسهم ، يأخذ عنهم ، ويستتم مادته بما يلقونها إليه من الأخبار ، وما ينشدونه من الشعر .

ولم يذكر ابن النديم ولا البغدادى ولا ياقوت فى ترجماتهم له هذا الأخذ عن الأعراب ، ولكن ابن النديم ذكر فى الفصل الذى عقده بعنوان : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء وشئ من أخبارهم وأنسابهم » رجلا من هؤلاء الأعراب اسمه أبو سوار الغنوى ، وفى حديثه عنه ذكر أن ممن أخذ عنه أبا عبيدة . وأبو سوار هذا هو الذى يذكر فى الأغانى أحيانا بهذه الصورة : « أبو سرار » واحدى الصورتين محرفة عن الأخرى ، والأقرب عندنا أنه أبو سوار لا أبو سرار

ونحن نستطيع أن نعرف — عدا أبى سوار هذا — كثيراً من أسماء الأعراب الذين أخذ عنهم أبو عبيدة ، من خلال الفصول التى نقلها عنه صاحب الأغانى ، فمنهم من الغنويين ، أبو يحيى ، وعبد الحميد بن عبد الواحد ، ثم أبو برزة القيسى ، وأبو حية النميرى ، وأبو محمد عصام العجلى ، ومقاتل الأحول

ابن سنان ، ومالك بن عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر ملاعب الأسنة ، إلى غير هؤلاء ممن يذكر فى هذه الفصول وفى غيرها ككتاب النقائض . وإذا كنا لا نكاد نعرف شيئا عن أكثر هؤلاء الأعراب ، فإننا نلاحظ — أول شئ — أن الأخبار التى يرويها عنهم إنما هى فى الأعم الأغلب أخبار تتصل بقبائلهم . ولعلنا نستطيع بالإلحاح فى الدرس وتتبع رواياتهم ومقابلتها ، أن نتمثل شيئاً عنهم ، وعن الأجواء التى كانت تحيط بهم .

وهكذا نرى أبا عبيدة قد حدد اتجاهه ، منذ تتلمذ على أبى عمرو ، بعلوم العرب من لغة وشعر وخبر ، ثم أخذ يوغل فى هذا السبيل حتى استطاع أن يأخذ مكان أستاذه من بعده . ولا تكاد كتبه التى تدل أسماؤها على موضوعاتها ، ولا آثاره وأخباره المنثورة ، فيما وقع إلينا ، تتجاوز ذلك . وإن ذهب الأستاذ احمد أمين فى الفصل الذى أشرنا إليه إلى أنه كان موزعاً بين ثقافات ثلاثة : يهودية وفارسية وعربية . والأصل فى هذا — كما يقول الأستاذ — إنه « فارسى الأصل ، يهودى الآباء ، تيمى بالولاء » . وظاهر أن هذا لا يكفى فيما ذهب إليه . وقد يكون للرجل ثقافة ما فارسية أو هندية أو ما إلى ذلك ، ولكنه كان يتلقفها مما كان يغمر الجو العلمى والأدبى فى البصرة ويشيع فيه ، كالذى جاء فى كتاب الأمالى(١) مما نسبه إليه أبو حاتم ، من حكاية بعض الحكم المأثورة عن فارس ، أو ما جاء فى عيون الأخبار(٢) من حكايته عن بعض الهنود المقيمين بالبصرة شيئاً مما يتعلق بالبيطرة أو طب الخيل .

وقد عرف بهذه الناحية ، وأقبل عليه الطلاب يلتمسونها عنده . وكان ينافسه على هذه المنزلة فيها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى . وكان الأصمعى يُدِلّ بمكانته لدى السلطان ، وبقدرته على حفظ الأخبار وحسن أدائها ، واختلابه الأسماع بذلك ، ولهذه الصفات قيمتها فى مجلس السمر ، فهو — كما يقول أبو نواس فى صفته — بلبل فى قفص ، ولكن غناءها فى حلقات الدرس غير كبير . فأما أبو عبيدة فكان أستاذاً قبل كل شئ ، وكان طلاب الأدب يكبرونه لأستاذيته هذه ، ويُقبلون على حلقته ، لأنهم — على حد تعبير بعضهم — « كانوا إذا جاءوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر »

(١) ١ : ٢٤٠ — (٢) ١ : ١٥٩

وإذا أتوا مجلس أبى عبيدة اشتروا الدر فى سوق البعر ؛ لأن الأصمعى كان حسن الإنشاء والزخرفة ، قليل الفائدة » .

ولسنا نعلم إلى أى مدى بلغت هذه الخصومة بين الرجلين . ولكنا نستطيع القول بأن أبا عبيدة ظفر بخصمه فى حلقات الدرس فى البصرة أولاً ، ثم ظفر به بعد ذلك لدى السلطان فى بغداد . وقد جاءه هذا الظفر عفواً ، وتهيأت له أسبابه دون أن يقصد إليه . وقد ذكر صاحب الأغانى طرفاً من هذه الأسباب ، فى أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال :

« كان إسحاق يأخذ عن الأصمعى ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكشف للرشيد معايبه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه وأن الصنيعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة والعلم وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعى وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبى عبيدة من أقدمه » .

وهكذا أتيح لأبى عبيدة أن يدخل بغداد ويتصل بالسلطان فيها ، وأن يشهد الحفاوة به فى مجلس الخليفة وأهل خاصته ورجال دولتا كالفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . وكان ذلك سنة ١٨٨ كما نص على ذلك الخطيب البغدادى ، أى بعد نكبة البرامكة ، وإن ذكر الأستاذ أحمد أمين ما يشير إلى صلته بهم ، وأنهم « كانوا يقدمونه على الأصمعى ويزاحمونه به عصبية منهم » . ولا يكاد يستقيم هذا مع ما يذكره الأصبهانى والبغدادى من ملابسات دخوله بغداد ، وأن ذلك كان من عمل الموصلى والفضل بن الربيع . ونحن نعرف بعدُ ماذا كان بين الفضل بن الربيع هذا والبرامكة من جفوة وعداء ، وهذا فضلا عن التاريخ الذى أشرنا إليه .

ولبث أبو عبيدة فى بغداد فترة من الزمن ، قرئت فيها كتبه عليه ، قرأها عليه على بن المغيرة الأثرم الوراق ، واتجه فيها إلى وضع كتابه مجاز القرآن . ثم لم يلبث أن عاد إلى البصرة ، وكان هذا الكتاب من أول ما عنى بوضعه بعد عودته ، وكان من أكثر كتبه إثارة للموجدة عليه ، وبعثاً للخصومات ضده . وكان الأصمعى رأس هذه الحملة التى وجهت بسبب هذا الكتاب إليه .

وقد ظل بقية حياته فى البصرة موفور النشاط فى الدرس وإخراج الكتب ،

وإلى جانبه وراقه الخاص به ، ابو غسان رفيع بن سلمة العبدى ، الملقب بدَّماذ . وربما كان أول من اختص بين العلماء والمؤلفين بورّاق يروى كتبه وينسخها ويذيعها وينزل منه منزلة الراوية من شاعره فى عهود الشعر .

٣

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — كما رأينا — خزرى الأصل ، من هذه الأقاليم التى ظلت ميداناً للحروب المتصلة بين الإيرانيين والأتراك ، وظلت مضطربة بين هذه الجنسين ، وإن بقى العنصر التركى غالباً عليها ظاهراً فيها . وإذن فالقول بفارسيته فيه تجوز كثير ، والمبالغة فى استنتاج النتائج من هذه الفارسية ، وتفسير الظواهر المختلفة بها ، مجانبة للدقة . ولسنا نقطع بشىء إلا أنه من هذه الأقاليم النائية ، وتلك الأجناس البعيدة التى لم تكن دخلت بعد فى معترك الأجناس فى العراق . ولهذه الحقيقة عندنا أثرها فى توجيه حياته .

ولعل مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل أن نجد كثيراً من رواة اللغة والأخبار وصور الحياة العربية فى هذا العصر ينتسبون إلى هذه الأقاليم وتلك الأجناس ؛ فإلى جانب ابى عبيدة فى البصرة نجد خلفا الأحمر ، وهو ليس إيرانيًّا على إطلاق القول ، إذ كان من فرغانة ، فيما وراء النهر ، على تخوم التركستان . وفى الكوفة حماد الرواية ، وهو ليس إيرانيًّا كذلك ، بل هو من تلك الأقاليم التى ينسب إليها أبو عبيدة ، إذ كان من بلاد الديلم . وفيها ابن الأعرابى ، وهو سِنْدِىّ الأصل ؛ إذ كان أبوه — فيما يقول ياقوت — عبداً سنديًّا . وهذه ظاهرة غريبة ولا ريب ، تكاد تؤدى بنا إلى القول بأن رواية الحياة العربية بأشعارها وأخبارها مرددة بين العرب كأبى زيد والأصمعى والفضل الضبى ، وبين هذه الأجناس البعيدة كأهل الديلم وفرغانة والسند ، كما رأينا فى أبى عبيدة وخلف وحماد وابن الأعرابى . فما تأويل هذه الظاهرة ؟

يقول الأستاذ أحمد أمين عن أبى عبيدة ، فى سياق الكلام عن طابع علمه ، إن فارسيته حررته من الخضوع للعصبية العربية . ولكن هذا إذا جاز أن يفسر نزعته الشعوبية ، فإنه يتعارض تعارضاً كبيراً مع هذا الاستغراق الشديد فى الحياة العربية متمثلة فى أشعار العرب وأخبارهم ، كما لاحظه معاصروه ، وكما

نراه واضحا جليـا فى هذه البقية الباقية من آثاره ، وحتى جاز له أن يقول وأن يقبل هــذا القول منه : « ما التقى فرسان فى جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما » . ولو أنه كان يدرس الحياة العربية ليستخرج منهـا مثالب العرب إرضاء لفارسيته كما قد يذهب الزعم لقد كان يكفيه فى ذلك القليل من درس هذه الحياة ، ولمـا اقتضى منه ذلك المذهب هذا « الاستغراق » الذى يبهرنا حقًّا حين نقرأ بعض الآثار التى بقيت لنـا منه ، وفيها إلى جانب الصور العربية التى يمكن أن توصف بأنهـا زريّة كثير من الصور النبيلة المجيدة التى تبعث على الفخر ، والتى هى جديرة أن تقوى العصبية العربيــة . لقد كان حق القول أن يقال : «إن فارسيته أقبلت به إلى الثقافة الفارسية» . وهذا ما لا نكاد نجده عند أبى عبيدة ، ولدينـا جزء غير قليل من آثاره ؛ كما أنا نعرف أسماء كتبه ، وقليل بينها ما يحتمل الاتجاه الفارسى .

ولــكن عبارة الأستاذ أحمد أمين مع هذا تفتح لنا السبيل إلى تفسير هذه الظاهرة التى ساءلنا عنها . فإذا كانت فارسية أبى عبيدة مما يحرره من الخضوع للعصبية العربية ، فإننا نستطيع القول بأن جنسية أبى عبيدة الخزرية مكنته من التحرر من العصبية الفارسية والعصبية العربية جميعاً . وكذلك يمكن أن يقال هذا عن بقية الرواة الذين أشرنا إليهم ، كحماد وخلف وابن الأعرابى . على أنه ربما كان لمثل هذه الجنسية أثر فى التمــكين لهم من هذا المذهب الذى اتجهوا إليه ، وهو التحرر من ربقة الإلف للحياة العربية ، وهو الإلف الذى يحيط بالعربى ، ويصد عنه شعور العجب ، وهو الشعور الذى يعتبر من أكبر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قويًّـا ، حتى يراه جديراً بالتسجيل .

ذلك أن هــذه الجنسية كانت لا تزال حتى ذلك الوقت بعيدة عن معترك الأجناس التى كانت تصطرع على السلطان ، وتختلف على صفات العظمة والسمو والمآثر المستمدة من التاريخ القريب والبعيد . وبذلك استطاعت أن تقف طليقة لا تغيرها هذه المشـاعر المحتدمة المضطربة ، واستطاع أصحابها أن ينظروا فيما حولهم نظرة حرة واسعة مجردة ، وأن يختاروا لأنفسهم الميدان الذى يملــكون فيه التبريز والغلبة ، أو يحققون فيــه لأنفسهم بعض الغايات او المــكانات الاجتماعية التى يتشوقون إليها ويتطلعون إلى الظفر بها . هــذا هو — فيما نحسب — مفتاح ذلك السر ، ونقطة البداية فى تحقيق تلك الظاهرة . ولعل

أقدم من يمثلها حماد الراوية ، وربما كان بشخصيته وأوليته هذه من الأسباب القوية التى مكنت لها ، فالمواطنة أو شبه المواطنة التى نراها بين حماد وخلف وأبى عبيدة كالمعاصرة تثير التأسى وتبعث على الاقتداء .

وقد نجح حماد نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير فى عصره ، فى رواية الحياة العربية بأخبارها وأشعارها ، كما نجح إلى جانب ذلك فى الظفر بتلك المكانة الاجتماعية التى تطمح الأبصار إليها . فكان — كما يقول أبو الفرج — « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيفد عليهم وينادمهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » . فلا جرم كان بشخصيته هذه وبتلك المكانة التى وصل إليها من أفضل الأسى التى تبعث على الاقتداء ، وتعمل عملها فى قيام الظواهر المختلفة ، ولا سيما إن كان هنالك نوع من الصلة كالذى كان بينه وبين أبى عبيدة مثلا .

ويقول ابن النطاح فى حكاية الباعث الذى بعث حماداً على انتهاج تلك السبيل — كما روى أبو الفرج — أنه «كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » . وهذه قصة قد تصح وقد لا تصح . ولكن الذى لا يكاد يداخلنا فيه الريب أن حماداً كان يحس منذ صغره أنه غريب فى المجتمع الذى كان يعيش فيه ، وهو المجتمع الكوفى ، فلا هو نبطى ولا هو فارسى ولا هو عربى ؛ فكان لا بدّ له ، فى طبيعة الأشياء فى مثل هذه الحالة ، أن يستكمل هذا النقص ، وأن يملأ هذا الفراغ الذى يحيط بمشاعره ، فيصطنع إحدى هذه الجنسيات التى حوله ، وكلها سواء بالنسبة إليه ، إلا أن العربية كانت ترجحها بطبيعة الحياة فى ذلك الوقت ، فمواليه الذين نشأ فيهم وتربى بينهم هم بنو شيبان ، والدولة القائمة عربية فى حقيقتها وفى ذوقها . وما هؤلاء الفرس ومن إليهم ممن يضمرون الخروج على الدولة ، إلا نوّار لا يمت إليهم بصلة ، ولا يشعر نحوهم بآصرة . وإذن فلا بدّ له من أن يصطنع العربية ، وأن يظفر من ذلك الاصطناع بما يملأ ذلك الفراغ ، فيحيا حياة عربية بدوية تملأ حواسه بالمظاهر العربية . ولعل تلك الحياة هى التى يشير إليها ابن النطاح

بالتشطر وصحبة الصعاليك واللصوص ، وأن تكون حياته المعنوية عربية أيضاً ، فيملأ عقله وخياله من الصور العربية الفنية ، يلتمسها فى هذه الأشعار ، وفيما يتناقله الأعراب من الأخبار . فإذا تم له هذا فقد وجد نفسه فى سبيل اتخاذ صناعة جديدة ، هى صناعة « الرواية » ، وقد تهيأت له أسبابها ، واجتمعت لديه مادتها بما لم تجتمع لأحد قبله . وما أشد حاجة الكثير من رجال هذه الدولة العربية إلى هذه الصناعة ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه هذه المكانة الأدبية والاجتماعية التى تصحح له موضعه .

هذه صورة من الحالات النفسية كما يمكن أن تصورها لنا الملابسات التاريخية والأدبية لحماد الراوية . وحاجتنا إلى معرفة هذه الصورة متصلة بتعرف الحوافز التى دفعت ابا عبيدة لسلوك سبيله تلك التى سلكها ، وهى بعينها سنبيل حماد الراوية . فالرجلان يلتقيان فى هذه السبيل ، كما يلتقيان فى جنسية واحدة هى الجنسية الخزرية . وإذا كانا يختلفان بعدُ فى ظروفهما ، إذ نشأ أبو عبيدة فى إبان الانقلاب العباسى ، وبين عوامل التوثب على الجنس العربى ، فإنا نحسب أن هذه القدوة التى كانت تتمثل فى حماد الراوية أمام أبى عبيدة وهو فى مفترق الطرق ، — وهى قدوة تملك كل عناصر التأثير — كانت مما يعوض عن هذا الاختلاف ، ويسدده فى تلك السبيل ، وإن بقى بعد ذلك فى أبى عبيدة شىء من آثار هذه الظروف كالنزعة الشعوبية ، وهى نزعة وجدت من العوامل الشخصية ما أبرزها ، كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، فقد كان هذا أمراً لابد منه فى طبيعة الأشياء . ولكنا نبادر فنقول منذ الآن إن هذه الشعوبية لا صلة لها بالفارسية ، ولكنها — فيما نحسب — شعوبية على الأصل فى هذه التسمية ، وهو التسوية بين الشعوب المختلفة التى تتكون منها الأمة الإسلامية ، فلا فضل لعربى على عجمى . ذلك هو الأصل عندنا فى شعوبية أبى عبيدة ، ويرجحه لدينا ما هو معروف عنه من أنه كان خارجى المذهب ، وقد نص على ذلك الجاحظ ، كما ذكر ابن النديم وياقوت أنه وضع كتابا فى «خوارج البحرين» . ومذهب الخوارج يتفق مع هذه الشعوبية بمعنى التسوية ، فالناس فى هذا المذهب سواء ، ورأيهم فى الأحق بالخلافة أنه الأصلح لها عربيًّا كان أوغير عربى صريح فى الدلالة على ذلك . ولو أن شعوبيته كانت شعوبية فارسية لكان الأقرب إليها والأدنى إلى الاتفاق معها ، أن يكون شيعى المذهب ، وهو ما لا نعرف عن أبى عبيدة أنه كان يقول به أو يذهب إليه

هذا هو الأصل فى اتجاه أبى عبيدة إلى الحياة العربية يتعرف أخبارها ويدرس أشعارها. وقد أقبل على ذلك — كما قلنا — مستغرقاً فيه، ملتمسا كل سبيل إليه. فلم يكتف فى ذلك بالتلقى عن شيوخ البصرة الذين تلقوا عن الأعراب كأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، وإنما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون.

وكان لهؤلاء الأعراب سوق كبيرة رائجة فى هذه الأمصار، ولا سيما البصرة بلد أبى عبيدة التى نشأ فيها كما قلنا، منذ نشأت الحاجة إلى درس العربية واستنباط قواعدها وتثقيف اللسان بها، والاعتماد فى هذا الدرس على مصادره الأولى، وهى الشعر الذى يرويه هؤلاء الأعراب، واللغة التى يتكلمون بها، والأخبار التى يقصونها. فلم تعد الدوافع التى تدفع بهؤلاء الأعراب إلى المصر مقصورة على التجارة فيما اعتادوا أن يتجروا به، فقد نشأت لهم هذه السوق الجديدة يتّجرون فيها بالحياة العربية التى يحيونها والتى يروونها، مع هؤلاء النفر الذين اتخذوا من هذه الحياة وروايتها ودرسها وتسجيلها مادة علمهم وميدان نشاطهم، سواء أكانوا من رجال النحو أم من أصحاب الشعر والخبر.

وقد نشأت هذه السوق فى البصرة بمربدها، حيث كان هؤلاء الأعراب يفدون للتجارة بأموالهم، وقلما كانوا أول الأمر يتجاوزونه. حتى إذا أقبلت هذه السوق الأدبية الجديدة، وأحس هؤلاء الأعراب بإقبالها ونشاطها، وبأنها أجدى عليهم وأكثر عائدة لهم، أخذوا يدخلون المصر، ويتصلون بالبيئات العلمية فيه، بل جعل بعضهم يستقر به، وأخذ فريق منهم يجدد فى أسلوب هذه التجارة الأدبية، فلا يقتصر على الرواية، بل يصطنع إلى جانبها الوراقة؛ فقد أحسّ أن القوم يتجرون بعلمه، ويفيدون منه أضعاف مايفيده، فأخذ يزاحمهم فى سبيلهم. وبذلك أخذنا نرى من هؤلاء الأعراب من يذكر عنه أنه كان يورق فى الحضر، كالذى يذكره ابن النديم عن أبى مالك عمرو ابن كركرة.

ولقد كان إقبال الأعراب على البصرة بهذه الصورة من العوامل القوية فى نشاط هذا الاتجاه العربى فى الحياة الأدبية بهذه المدينة، نشاطاً استطاع أن يعادل ذلك الاتجاه الآخر إلى رواية الحياة الفارسية ويغالبه، وهو الاتجاه الذى نراه عندما ندرس ابن المقفع مندفعاً فى سبيله بجميع قوته لا يكاد يعبأ

بشيء ، ولـكنه لم يلبث أن رأى ذلك الاتجاه العربى الذى كان الأعراب يزيدونه قوة ، ويملأون به الجو الأدبى فى البصرة ، يناظره ويغالبه ويأخذ عليه سبيله ، ويكسر من حدة نشاطه ؛ فقد كان يملك الوسيلة التى يملـكها مناظره ، وهى روح القصص وتصوير البطولة فى صورها المختلفة . وهى الروح التى تفتن الجمهور وتقبل به وتسيطر عليه . ولا ريب أن هذا الأثر الأعرابى من أخطر الآثار فى الحياة الإسلامية : الأدبية والاجتماعية معاً ، وهوعندنا أخطر من جميع ما ينسب إلى الأعراب فى تاريخ الأدب العربى ، من الاستعانة بهم فى وضع النحو وجمع اللغة وما إلى ذلك . ويكاد يعادله عنـدنا ما أتيح لهذا الاتجاه العربى من رجل كأبى عبيدة ، احتمع له من المواهب العقلية والفنية ، ومن القدرة على الدءوب والصبر ، ما استطاع به أن يجعل ذلك الأثر الأعرابى قوة منظمة ، وأن يسبغ عليه من المظاهر العلمية والأدبية ما يجعله بعيد الأثر ، جديراً بمناهضة ذلك الاتجاه الفارسى .

ولـكن قبل أن نأخذ فى عرض ما عمله أبو عبيدة فى هذه السبيل لابد لنا أن نتساءل أولاً عن العوامل التى أدت إلى اجتماع هذا الفيض الزاخر من أخبار الحياة العربية وصورها ، حتى أتيح لأبى عبيدة أن يصنع منه هذا البناء العظيم الذى يمثل الحياة العربية البدوية تمثيلا يأخذ بجوانب النفس ، أو بعبارة أخرى : كيف أتيح لبادية البصرة أن تضم هذه الأطراف المختلفة من صور الحياة الجاهلية ؟

الأمر فى هذا قريب هين متصل بطبيعة المجتمع البصرى منذ أول عهده ذلك أن البصرة كانت أكبر المراكز التى ثارت فيها الخصومات العنيفة المتصلة بين القبائل العربية ، وكانت هذه الخصومات المحدثة والمنافسات الجديدة سـبباً فى إثارة الأحقاد القديمة الـكامنة فى أعماق هذه القبائل . ومنذ ثارت هذه الأحقاد وجدت من الشعراء من يؤرثها ويهيجها ويثير الذكريات المختلفة المتصلة بهـا ، كما وجدت من الرواة من يجعل همه فى اقتصاص أخبارها وتتبع أحاديثها .

وليس من شأننا هنا أن نذكر الأسباب المختلفة لهذه الخصومات ، فإنما غايتنا المتصلة بموضوعنا أن نسجل نتائجها الأدبيـة . ومن أول هذه النتائج ما أشرنا إليه من قيام الشعراء بها ، واستثارة الذكريات الجاهليـة فى أشعارهم حين يفخرون بقبائلهم ، ويغضّـون من قبـائل خصومهم ، ويلجئون فى هذا

لجاجا بعيداً كلما لجت الخصومة، حتى لنرى من أهل هذه القبائل من يستعفون من صنيع هؤلاء الشعراء، كالذى يحكيه ابن سلام من أن رجالا من تميم مشت بين جرير والتيمى، وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا : يثيرون مساوينا، ويهجون أحياءنا وأمواتنا . ولقد كثر الشعراء الذين شاركوا بشعرهم فى هذه الخصومات ببادية البصرة كثرة ظاهرة، وكثر الشعر الذى ينشدونه ويذيعونه كثرة غامرة، وبالغوا فى استثارة الذكريات وخلق المفاخر والمثالب مبالغة كبيرة . وكان هذا الشعر يجد من رجال هذه القبائل المختلفة آذانا مصيخة، وأعناقاً مائلة، وأعصاباً هيأتها هذه الخصومات للطرب الشديد به . وطبيعى أن تنشأ حول هذه الأشعار، وما تشير إليه من أحداث، وما تترنم به من مفاخر، طائفة من الأخبار والأقاصيص تفسر إشاراته، وتفصِّل مجملاته، وتسير إلى جانبه فى استثارة النفوس، واستفزاز المشاعر الحاقدة .

هذه الحركة الأدبية القصصية التى نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعى والبُعَيْث وابن لجأ التيمى والصَّلَتان العبدى وغيرهم من شعراء هذه البادية فى القرن الأول هى الأصل فى اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة فى تلك الفترة من الزمن، وفى ذلك الإقليم . وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه، وما هو مختلق موضوع، ولكنها جميعاً تشترك فى أنها صور للحياة العربية البدوية . والأصل فيها هو تلك الخصومات القَبَلية أولاً، ثم ما نشأ عنها من خصومات شعرية، ثم لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادة من مواد الدرس والطلب فى بيئات البصرة الأدبية والعلمية، تلتمس لذاتها ولما فيها من متعة فنية، وتلتمس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية، وتلتمس لما تتضمنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء . وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها فى حلقات الدرس، كما جعل يلتمسها عند أولئك الأعراب .

والمسألة التى تواجهنا الآن هى : ماذا صنع أبو عبيدة بهذه الأخبار والأقاصيص ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

طه الحاجرى

(يتبع)